أما قبله

بقلم: أ. د. عبد الستار الحلوجى*

عهدى بالدكتور حسين نصار يرجع إلى ما يقرب من نصف قرن من الزمان . كنت يومها تلميذا صغيرا حصل على الثانوية العامة من شعبة العلوم ،ولكننى كنت أهوى اللغة والأدب وكنت مبهورا بكتابات طه حسين وأحاديثه الإذاعية ، ففكرت فى أن ألتحق بكلية الآداب ، ولم تكن الكلية وقتها تسمح لطلاب الشعبة العلمية بالقبول إلا فى أقسام ثلاثة هى : اللغة العربية والصحافة والمكتبات . ورفضت أن أدخل قسم الصحافة أو قسم المكتبات ودخلت قسم اللغة العربية . وفى أول فصل دراسى درست الأدب الجاهلى على يد أستاذين جليلين لم أكن قد سمعت بهما من قبل هما الدكتور شوقى ضيف والدكتور حسين نصار . كان الدكتور شوقى يدرِّس لنا الأدب وكان الدكتور نصار يدرس النصوص .

واستمرت تلمذتى للعالمين الجليلين خلال سنوات الدراسة الأربع ، فتلقيت عنهما تاريخ الأدب العربى ، ودرست على يديهما النحو فى كتابى : «شذور الذهب» و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» . وأذكر أن الدكتور نصار كان أول من درس لنا النحو ، ودراسة النحو فى كتب ابن هشام كانت شيئا عسيرا بالنسبة لأى طالب لم يسبق له الدراسة فى المعاهد الأزهرية .

ولكننى أشهد أن الدكتور نصار استطاع ببراعة فائقة أن يقرِّب النحو إلى عقولنا وإلى نفوسنا أيضًا ، فلم يكن يكتفى بأن يوصِّل لنا المعلومات ، وأن يشرح لنا القواعد ، وإنما كان يمضى إلى ما هو أبعد من ذلك . كان يحاول جاهدا أن يزيل من نفوسنا الخوف من ذلك الشبح الرهيب الذى يسمى «النحو» ، وأن يجعلنا نقترب منه ونتعامل معه على أنه رياضة عقلية ، وعلى أنه ضرورة لاغنى عنها لفهم معنى أى نص من النصوص . وعلى يد الدكتور نصار بدأنا نألف النحو ونرى فيه عِلما قابلا للاستئناس إن صح هذا التعبير .

كان ذلك فى منتصف خمسينيات القرن الماضى ، وكان قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة وقتها يزخر بمجموعة من العمالقة : طه حسين وشوقى ضيف ومصطفى السقا وخليل نامى وسهير القلماوى ومحمد كامل حسين وشكرى عياد وعبد الحميد يونس وحسين نصار ويوسف خليف وغيرهم .

(*) أستاذ المكتبات بكلية الآداب - جامعة القاهرة .

وعلى أيدى هذه السلسلة الذهبية تعلم الجيل الذى أنتمى إليه ، واقتحم مجالات معرفية شتى أبلى فيها بلاء حسنا . وما زالت أسماء بعض طلاب تلك المرحلة تتألق فى سماء الإعلام والصحافة والتربية ، فضلا عن مجالات اللغة والأدب والنقد .

كنا طلاب علم بمعنى الكلمة ، وكنا ننظر إلى أساتذتنا باحترام شديد يكاد يبلغ درجة التقديس . وكان لكل منهم أسلوبه ومذاقه الخاص ، وكنا نلمح فى الدكتور شوقى ضيف والدكتور حسين نصار قدرا كبيرا من التشابه . فكلاهما كان بسيطا ومتواضعا وهادئا ورقيقا وخفيض الصوت ، مع عمق فى الفكر وأصالة فى الرأى . وكلاهما كان يبتعد عن الأضواء ، وعن وسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتليفزيون ، ويعيش راهبًا متبتلا فى محراب العلم . تسمعه فى المحاضرة فتشعر أنك أمام أستاذ عادى لايختلف عن كثير من الأساتذة ، فهو لايتحدث إليك من برج عالٍ وإنما يقترب منك حتى ليخيل إليك أنه يتحدث إلى نفسه . وهو لا يشعرك بأنه يقول شيئا جديدا أو مهما ، وإنما يقول كلاما عاديا يمكن أن يقوله غيره كثيرون . ولكنك حين تقرأ له تدرك أنه يفجِّر قضايا فكرية فى غاية الأهمية ، ويعرضها بسلاسة منقطعة النظير ، وتتعلم منه ـ فى هدوء ـ كيف تفكر وكيف تكتب .

حينما نشَرت الدكتورة بنت الشاطئ ـ رحمها الله ـ «رسالة الغفران» لأبى العلاء أهدتها إلى من علَّمها كيف تقرأ ، وأنا بالأصالة عن نفسى ونيابة عن جيلى كله أحيِّى أستاذى الجليل الدكتور حسين نصار الذى تعلمت منه الأدب بكل معانيه ، وتعلمت منه كيف أحب النحو ، وهو علم من أصعب علوم العربية ، فجزاه الله عنى وعن طلابه وعارفى فضله خير الجزاء .

وإذا كانت جائزة الملك فيصل العالمية هى نوبل العرب ، فإن حصول الدكتور حسين نصار عليها هذا العام يأتى تتويجًا لعطاء علمى ثرى استمر أكثر من خمسين عاما ، ويؤكد فى الوقت نفسه أن العمل العلمى الأصيل لابد أن يأتى يومٌ يحظى فيه بالتقدير مهما بَعُد هذا اليوم . وذلك درس ينبغى أن يستوعبه الباحثون الذين يتعجلون الشهرة ويلهثون وراء بريق الإعلام ، والذين يدفعون إلى المطابع أعمالا كثيرة كغثاء السيل لا أصالة فيها ولا إبداع .

ولعل خير ما يمكن أن أختم به هذه التقدمة هو قول الحق سبحانه :

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الأَرْضِ﴾ .